عين السيكلوب

قصة بقلم سعدي يوسف

الضوء مطفأ داخل الشقة .

حين سمعت الدق على الباب ، قدّرت ان الساعة هي الثانية بعد منتصف الليل .

في البلاد الاخرى يحرصون على الاحتفاظ بالمفتاح داخل الثقب ، خشية ان يلاحظ من هو خارج المنزل ، النور ، من خلال ثقب المفتاح، او خشية ادخال مفتاح مقلد من خارج الباب . تستطيع ان تبقي النور مطفأ ، وان تعرف القادم الذي يطرق الباب ، او يضغط على زر الجرس الكهربائي ، بمجرد النظر في « عين السيكلوب » ، العين السحرية المثبتة في خشب الباب ، عدسة صغيرة مكبرة .

عندما تضع عينك على العدسة ، يبدو القادم من اخر الممر الخارجي ـ وغالبا ما يكون هذا الممر مضاء ـ قميئا ، قصيرا .. وما ان يخطو خطوة حتى يبدأ بالتعملق .. حتى اذا قارب الباب اتسع وجهه ، واتسع ، حتى ليكاد يغطي المسافة بين جداري الممر كلها. ان « عين السيكلوب » تقوم بدور سكرتير منزّه عن الخطأ في استقبال الناس .

الدق على الباب يزداد عنفا

غادرت فراشي ، حافيا ، لئلا يصدر مني اي صوت .. لم أكن بحاجة الى النظر من خلال « عين السيكلوب » ، فقد كان صوت مدام داي يتعالى مصحوبا بدقاتها العنيفة :

ـ ايها العراقي .. اين ابنتي ؟

ان ابنة مدام داي ليست معي في الشقة ، ولا يمكن ان تكون معي ، او مع اي انسان اخر ، في مثل هذه الساعة المتأخرة . صحيح انني اتبادل الحديث مع ابنة مدام داي ، كما انها شابة غير دميمة، لكني لم استقبلها في شقتي مساء .. ومدام داي تعرف الامر معرفة تامة ، اذ لا يفصل بين شقتها وشقتي سوى قاطع من الخشب المعاكس القابل للانهيار ، في اية لحظة ، تحت ضربات المدام ، كما تعرف المدام ايضا انني غادرت الى وهران عصر اليوم . فقد شاهدتني هي وابنتها ادخل الحافلة المهيأة للانطلاق ، بينما كانتا تقومان بجولتهما المعتادة ، من سينما فرساي الى نصب الفرقة الاجنبية ، مارتين بمقهى الاتحاد والنادي العسكري وبار الكاميرون ومنطلق الحافلات .

ـ ايها العراقي ... اين ابنتي ؟

وجه مدام داي المحتقن ، ممتلىء بغضون متضخمة .. العدسة اليمنى من نظارتها الطبية ملتصقة بالباب مثل صحن شفاف وثقيل.. دقات عنيفة اخرى . والوجه المتضخم يزداد احتقانا ، والغضون تزداد تضخما ...

ـ آه يا بنيتي ... يا كلبة !

الوجه يبتعد ... يظهر الشعر الابيض والملابس السود .. تتحول مدام داي بسرعة الى دمية صغيرة متحركة ذات شعر ابيض وملابس سود .. تختفي الدمية الشمطاء الصغيرة ، عند اول درجة من درجات السلم الهابط .

ـ ما هذا ؟ ما هذا ؟

انه صوت مداموازيل كراندوم .. لا بد ان عشيقها غادرها الليلة مبكرا .. لا .. ان الصوت المتميز لسيارته « اليانار » الرمادية يفضح زيارة المساء المتأخر ، ويمزق الصمت الليلي في شارع المدينة الصغيرة الرئيس ، ثم يخف ، ويخفت ، حتى يتلاشى في هرير منتظم.

من « عين السيكلوب » ارى الشعر الاصفر المضطرب ، والوجه الاصفر الدقيق لمداموازيل كراندوم ، واعلى الروب الاصفر .. انها في وسط الممر الخارجي ، تماما تحت المصباح الكهربائي كما اقدّر .

عادت الى الاستديو الذي تسكنه ، وهي لا تخفي تأففها . لم اسمع باب الستديو ينطبق . الخطوات المسرعة القلقة ، تضرب درجات السلم الهابط الى الطابق الاول ، كانت كل ضربة منها اشبه باصطفاق حاد لقطعتين من اللوح الرقيق ...

الخطوات تتوقف فجاة .. دقات عنيفة عصبية على باب اخر:

ـ أيها العراقي ... أين ابنتي ؟

هي ، اذن ، امام باب « طارق » ، العراقي الذي يسكن الاستديو الاول في الطابق الاول .

انه جاء البناية منذ اسبوع فقط . كان يعمل في قرية تبعد تسعة عشر كيلومترا ، ويقيم في محل عمله ، وقد اشتغلت بنت مدام داي معلمة في القرية نفسها ، شهرا واحدا قبل ان تنقل الى المدينة .

في الساعة العاشرة من مساء اليوم ، وجدت باب استديو « طارق » مفتوحا ، زرته ، وتحدثنا قليلا ، كان وجهه حليقا بعناية مبالغة ، تفوح منه رائحة ماء الكولونيا .. قال لي انه آثر السكن هنا، على السكن في القرية ، باعتبار ان المواصلات مضبوطة ، مريحة ، معتدلة التكاليف . سألته عن انباء العراق ، وعلاقاته مع الفتيات ... كان مستعجلا في حديثه، مقتضب الاجابة ، متلهفا الى شيء ما .. اعطاني كيسين صغيرين ، في احدهما بهارات هندية ، وفي الاخر شاي اسود جاء به من العراق .. قضيت معه حوالي نصف ساعة ... ثم عدت الى شقتي في الطابق الثاني .

ـ ما هذا ... يا مدام داي ؟

الصوت يبلغني ، رقيقا ، مليئا ، فيه شيء من الارتجاف اللذيذ. انه صوت ماري تيريزا « ماريتا » .. ابنة الحلاق الاسباني ، التي تعمل بائعة كتب في « مكتبة مينو » قرب المسرح البلدي .

« ماريتا » في السابعة عشرة ، فتاة مندفعة ، قصيرة الشعر ، عنيدة ، ونشيطة ..

في الاستديو الذي يسكنه طارق الان ، كان يقيم بائع نظارات فرنسي من اصل اسباني .. ارسل زوجته الى فرنسا ، وظل يقيم حفلات رقص صاخبة حتى الصباح ، مصفيا محل النظارات ، قطعة قطعة ، حتى غادر هو الاخر الى فرنسا ،دون ان يدفع ايجار الاستديو لمدة ثلاثة اشهر ، وكانت « ماريتا » ترقص في هذا الاستديو الى ساعات الصباح الاولى ...

بعد سفره ، ظلت « ماريتا » نائمة في فراشها اسبوعا .. كانت متعبة .

ـ مسكينة .. مدام داي ...

انها « ماريتا » ايضا .

مدام داي مسكينة فعلا . كان اسمها « فاطمة » ، جاءت الى هذه المدينة من ولاية « الاصنام » ،مع ابنة عم لها .. كانتا تعملان ساقيتي خمر . ابنة عمها عاشرت تاجرا صغيرا ، وتركت العمل في الحانات. اما هي فقد تعلق بها نائب عريف فرنسي من الفرقة الاجنبية ..

.. رافقته في مراكش ، وكازبلانكا ، والسنغال ، وتونس ، والاغواط على حدود الصحراء الكبرى ، ولم يتزوجا الا بعد ثماني سنوات . وحين تقاعد من الجيش اعطي وظيفة مدنية جيدة . لم ينجبا ..هذه البنت هي ابنة اخيها .. جاءت بها من « الاصنام » وهي في الرابعة، ربتها ،وادخلتها المدرسة ، وحين مات المسيو داي ، عاشتا ، معا، على تقاعد متواضع ، حتى اتمت البنت دراستها ، وبدأت تعمل .

مدام داي تصوم ، وتفكر بالذهاب الى مكة . انها تريد ان يتوفر لها المال الكافي للحج ، وهي تتمنى لبنيتها زواجا سليما .

عندما خيرت مدام داي بين الجنسية الفرنسية ، وجنسية وطنها ، بعد الاستقلال ، اختارت وطنها ، بالرغم من انها لا تتحدث الا بالفرنسية ، ولا تختلط الا مع بقايا الفرنسيين والاسبان هنا ،وبالرغم من ان تخصيصاتها التقاعدية في فرنسا سوف تكون اكثر .

مرة ، ارتني صورة زوجها ، كانت صورة قهوائية ثخينة لجندي شاب نحيل في خيمة .. قالت انه ارسل هذه الصورة من مراكش . وارتني بعدها صورة ثانية لزوجها .. كان موظفا سمينا في مؤسسة تأمين ... قالت انه مات بالسكتة القلبية .. وانه ظل يردد اسم ابنتها طيلة احتضاره .

ـ لا احد يجيب ...

الصوت المنكسر لمدام داي ، مرة اخرى . واسمع خطواتها اقل نشاطا ، وهي تصعد السلم الى الطابق الثاني .. انها تبدو الان من خلل « عين السيكلوب » . دمية ضئيلة لعجوز ملفعة بالسواد ،تتجه الى باب شقتي .. متضخمة فيكل خطوة تخطوها ..

ـ لقد هرب العراقي... لقد هرب بحقيبته !..

صوت « ماريتا » يرن رنين اجراس فضة في ممرات البناية .

الدمية الملفعة بالسواد تتوقف في منتصف الطريق الى شقتي، تماما ، تحت المصباح ، وتبدو مكشوفة بشكل مؤلم . .لي .. ولعيني مدموازيل كراندیوم ، الواقفة ، حتما ، الان ، خلف البابالموارب..

الدمية السوداء تعود متضائلة باستمرار . الىاول السلم .

ـ ايتها القحبة !

الدمية السوداء تمسك بشعردميةاخرى ... بشعر ابنة مدام داي ، وتجرها من شعرها جرا ، الى وسط الممر ، نحو باب شقة مدام داي المفتوح .. الدمية السوداء تتضخم ، والدمية الاخرى تتضخم .. ابنة مدام داي مهدلة الشعر ، عارية ، الا من روب ابيض مزين بازهار وردية .

ـ اسكتي .. والا انتحرت !

ـ ايتها القحبة !.

افلتت البنت من قبضة مدام داي المرتعشة ، واسرعت وهي تقفز نحو المصعد ...

ـ سوف القي بنفسي من سطح العمارة ...

ـ ايتها القحبة !.

الدمية السوداء الصغيرة تتجه نحو السلم الهابط .

ـ مدام داي .. الى اين تذهبين في هذا الليل ؟

انه صوت « ماريتا » .

في العمارة ، كل شيء ، صامت . لكن كل شيء ، منتبه . اقل نامة تفتح كل العيون وراء كل الابواب .

ربع ساعة من الصمت .

سيارة تتوقف ، عند مدخل العمارة كما اقدّر .

وقع اقدام كثيرة على السلالم . دمى عديدة تدخل الواحدة بعد الاخرى ، المجال المنظور ، من الممر ، وهي ترتدي ملابس الشرطةالزرق، وملابس مدنية ايضا .. تتضخم الدمى ، ويظهر من بينها ضابط شرطة ، قد يكون القوميسار نفسه .

الذي قد يكون القوميسار يوجه عددا من رجال الشرطة باشارة من يده الى المصعد .. يتقدم .. تتخذ ملامحه شيئا فشيئا وضعها الطبيعي .. يتحدث مع مدام داي ، ثم يدخل معها الشقة التي ظل بابها مفتوحا منذ ساعة تقريبا ..

الدمى التي ترتدي ملابس الشرطة الزرق والملابس المدنية ايضا تخرج من باب المصعد . احدهم .. وهو الذي يرتدي معطفا منالتركال الخفيف الاسود ، يمسك بيد ابنة مدام داي . وجه الابنة وهو يتضح في المجال المنظور لعين التلسكوب ، يبدو محتقنا ، مخموشا عدة خمشات ... اما هي فمنقادة انقيادا مستسلما الى يد الرجل ذي معطف التركال الخفيف الاسود .

رجال الشرطة يغادرون عن طريق السلم .

الذي قد يكون القوميسار يغادر عن طريق المصعد .

السيارة عند مدخل العمارة تتحرك مبتعدة ، بينما يعود الصمت القلق الى الممرات والغرف . مداموازيل كراندیوم تحكم اغلاق الباب . « ماريتا » في الطابق الاول تدندن اغنية عن الحب ،وتطبق الباب ايضا . انا ابتعد عن الباب ، وعين السيكلوب ، وادخلالحجرة التي لا يفصلها عن شقة مدام داي سوى قاطع من الخشب المعاكس .. ثم اجلس لصق هذا القاطع .

قال الرجل ذو المعطف : مدام.. ارجو ان تتركينا وحدنا .

لم اسمع رد مدام داي .

قال الرجل ذو المعطف : هل نزلت انت اليه ؟

قالت البنت : نعم .

ـ هل نالك ؟

ـ لا .

ـ هل كنت على موعد معه ؟

ـ نعم .

ـ في هذه الليلة ؟

ـ نعم .

في هذه الليلة ، عادت البنت مع امها ، بعد جولتهما اليومية المعتادة . ان البنت لا تخرج الى شوارع المدينة ، ومخازنها ، الا برفقة امها : الشبان يمرون بهما ، يلقون نظرة على البنت ، ونظرة على الام، ثم تلتقط نظراتهم فتاة اخرى تتمشى وحيدة ، او فتيات اخريات يتمشين معا متضاحكات . انهما تعودان الى الشقة الضيقة مع الغروب دائما ...

ومع الغروب تكون الشوارع الخلفية ، وسيقان الاشجار الضخمة في شارع « المقطع » اعشاش حب متناثرة متقاربة ...

السنوات تمر ، والجولة اليومية تستمر . السنوات تمر ، والشوارع الخلفية وسيقان الاشجار تستضيف عشاقا جددا يتزوجون او لا يتزوجون .. السنوات تمر ، والبنت تمر مع امها كل يوم ..انها لم تتوقف مساء ما ، في ركن معتم من شارع خلفي ، او وراء ساق شجرة ..

في هذه الليلة سوف تتوقف،سوف تتوقف طويلا في استديو العراقي .

قد يكونان اتفقا على الموعد في القرية ، او في الحافلة العائدة منها .. ان البنت ما تزال تأخذ راتبها من مدرستها السابقة فيالقرية.

قال الرجل ذو المعطف : وامك ؟

قالت البنت : كانت نائمة .

شقتهما الصغيرة ذات غرفتين ودوش فقط ، ودون مطبخ.

البنت تنام في الغرفة القريبة من الباب . اما الام فتنام في الغرفة الداخلية الملاصقة لشقتي .

كل ليلة تغلق الام باب الشقة ، وتحتفظ بالمفتاح تحت رأسها ، وتضع طاولة الطبخ وطباخ الغاز وراء الباب ، قبل ان تدلف الى غرفتها الداخلية ، وتنام نوما غير عميق .

انهما تعيشان وحيدتين . اقرباؤهما في ولاية « الاصنام » البعيدة لا يزورنهما ابدا . والناس في هذه المدينة يعتبرونهما غريبتين:

الام كانت متزوجة من فرنسي في الفرقة الاجنبية ، والبنت لا يعرفون بالضبط من تكون .. فابوها وامها يعيشان في « الاصنام » البعيدة .. ومن يدري من يكونان هما أيضا ..

لم يدخل شقتهما رجل من المدينة منذ موت المسيو داي .

والام مقتنعة بان دخول رجل ، او فتى ، شقتهما ، امر غير مقبول ، ولا سليم ، فهما امرأتان وحيدتان ، غريبتان عن المدينة شيئا ما ، رغم السنوات الثلاثين التي قضتهما الام هنا .

البنت في فراشها القريب من الباب تنتظر ان تنام امها .

والفتى في الطابق الاول ينتظر الخطى الخفية .

قال الرجل ذو المعطف : كم حبة تناولت ؟

قالت البنت : حبتين .

ـ هل اعتادت تناول هذه الكمية ؟

ـ لا .

ـ اذن .. لماذا اخذت حبتين ؟

ـ .....

في حوالي الحادية عشرة، تنصرف الام الى غرفتها لتنام ، وتظل البنت تستمع الى اذاعة مونت كارلو ، وقد تقوم في الوقت نفسه، باعداد اعمالها المدرسية . ربما لم تنم الام سريعا ، ربما شعرت بانها ستكون الليلة قريبة ارق مرهق .. انها تحتفظ ، دائما ، بزجاجة صغيرة للحبوب المنومة .. والبنت هي التي تاتيها ، عادة، بالحبة وكاس الماء .

ربما شكت الام ارقها ..

ان الفتى في الطابق الاول ينتظر الخطى الخفية .

حبتين بدل حبة واحدة .

سيكون النوم عميقا ، مريحا... وسوف تكون الانفاس هادئة ، مستسلمة ، داعية الى الاطمئنان .

سوف تستطيع البنت ، آنذاك ، ان تستل المفتاح من تحت راس امها ، دون وجل ، وان تبعد طاولة المطبخ وطباخ الغاز من وراء الباب ، وغير آبهة بالصرير الذي قد لا يمكنها تجنبه اثناءتحريكها الطاولة والطباخ .. وسوف يكون باستطاعتها ان تدير المفتاح ،وتفتح باب الشقة ، بثقة شبه تامة .

قال الرجل ذو المعطف : هلكانت تشكو ارقا شديدا ؟

قالت البنت : نعم .

ـ هل اقترحت عليها تناول حبتين ؟

ـ نعم .

ـ الم تعرفي ان هذا قد يضر بها ؟

ـ لا .

المسيو داي مات بالسكتة القلبية . كان موته سريعا وفاجعا بالنسبة لمدام داي وابنتها .

ومنذ موته دابت مدام داي على استشارة الدكتور فيسيدو ،الذي يعمل في عيادة قريبة من الفرساي . كانت تذهب اليه كل ستة اشهر ليفحص قلبها . وحين سالتهعن الحبوب المنومة ، اختار لها نوعا من الحبوب مناسبا ، مشددا على الا تتناول سوى حبة واحدة ، وقت الحاجة الماسة .

في هذه الليلة كانت تريد ان تنام فقط .. ان تنام نوما عميقا .

وعندما اقترحت عليها ابنتها تناول حبتين ، لم تجد باسا في مخالفة نصيحة الطبيب ، ولو مرة واحدة ، بل انها لم تسالابنتها عن الضرر الذي قد تلحقه بها مخالفة نصيحة الطبيب ، ولو على سبيل الاطمئنان .

غدا ، ذكرى موت زوجها ..

وهي تريد ان تذهب الى المقبرة في الصباح الباكر، بعد ان تشتري الزهور من اول بائع تجده في السوق .

قال الرجل ذو المعطف : اتحبين امك ؟

قالت البنت : نعم .

انها تحب امها :

تمسك بيدها ، وهما نسيران في الشارع، تقترح عليها الملابس الجميلة المناسبة لامرأة في مثل سنها ، وتصحبها الى صالون الحلاقة مشاركة اياها في اختيار التسريحة وصبغة الشعر ، وعندماتسافران الى مكان ما ، تحمل هي حقيبة ملابس امها ، وتعنى بان تجلسها في المكان المريح من القطار او الحافلة .

ان امها الحقيقية ، في ولاية « الاصنام » البعيدة ، وهي لا تحتفظ بذكريات طفولة عن امها الحقيقية .. ان ذكرياتها الاولى هي مع مدام داي . .التي كانت تمشط شعرها ، وتشتري لها الدمى والملابس والحلوى ، وترافقها الى المدرسة الابتدائية ، وهي التي صحبتها ـ بعد ان نالت الشهادة الثانوية ـ في كل معاملات التوظيف الطويلة المتعبة ،وهي التي ارتها مدن فرنسا ومدن الحدود السويسرية، في سفرات امتد بعضها ثلاثة اشهر .. وهي التي تعنى بها الان ، وتعرفها على حقائق الحياة .

انها تحب امها .

قال الرجل ذو المعطف : والعراقي ؟ اتحبينه ؟

قالت البنت : نعم .

قد تكون فتوته ، وغرابة جمال وجهه ، هما ما اثار اهتمامها به عندما دخلت تلك المدرسة الريفية .

انه يتلعثم في حديثه قليلا ، ويبدو مهزوزا ، نوعا ما ، تجاه العلائق الاجتماعية ..

أهو خشن ؟ لا ...

اهو مهذب ؟ لا ...

عيناه جميلتان دون شك ، ولهجته العربية غريبة .

ضحكت في سرها من نطقه المغلوط لبعض الكلمات الفرنسية التي يدخلها في حديثه تشبها بزملائه من بني وطنها .

سالها عن مسكنها .

وكل يوم كان يتحدث اليها قليلا، او ينظر اليها طويلا حين لا يلحظه أحد سواها .

مرة قال لها انه سوف يسكن المدينة .. قريبا منها .

اقترحت عليه ان يسكن ذلك الاستديو بالطابق الاول ،فلقد فرغ منذ ايام .

قال الرجل ذو المعطف : هل وعدك بالزواج ؟

قالت البنت : لا .

بغداد — سعدي يوسف

مكتبة النهضة ـ بغداد

اطلب منها

جميع منشورات

دار الآداب

وسائر المنشورات العربية